{جعلناكم أمة وسطا}

عبد الرحمن السالمي *

يريد كثير من الدارسين في السنوات الأخيرة اعتبار الأمة الوسط، التي تحدث عنها القرآن الكريم، وأراد لنا أن نكونها، هي الجماعة المعتدلة في الاعتقادات والآراء والتصرفات. ولا غبار على هذا المعنى، لكنه في الحقيقة جانب من جوانب مقاصد الأمة والنهج، ولا يستغرقها أو يستغرق أهدافها. وربما قاد الدارسين لذلك أمران اثنان: معنى الوسط الفلسفي الأفلاطوني من جهة، وأحداث العقدين الأخيرين من جهة ثانية. فالفضيلة عند أفلاطون توسط بين رذيلتين. فالشجاعة مثلا هي وسط بين الشهود والجبن. والكرم وسطٌ بين البخل والتبذير. ومع وضوح هذا "الوسط" الذهبي لأول وهلة؟ فإنه في الحقيقة لا ينضبط، إذ لا توسط مثلا بين الحكم والحمق، ولا بين الصدق والكذب. ثم إنه مقياس ميكانيكي لا يتفق والأخلاق على المستوى الواقعي. ومع أنه غير مضر، فإنه في الواقع غير مفيد في الكثير من الحالات. ولهذا لا أعتقد أنه يمكن تفسير الآية الكريمة به.

ومن جهة ثانية فقد أكثر الباحثون في الثمانينات والتسعينات من استحثاث الشباب على الهدوء والتؤدة، والبعد عن الغلو والتطرف في الاعتقاد والسلوك. وتحدثوا في هذا الصدد عن الاعتدال والتوسط، وسارعوا للاستشهاد بالآية الكريمة عن الأمة الوسط.

ولا شك أن الاعتدال في الآراء والتصرفات أمرٌ محمودٌ في الدنيا والدين. لكن بوسع المدققين أن يزعموا أن ذلك لا يصحُّ دائماً في أمور الاعتقاد بالذات، حيث تكون هناك (من الناحية النظرية على الأقل) قطيعة مع الاعتقادات الباطلة، والآراء غير الواضحة، والتي قد تناول بعض أطرافها.

وهكذا لا يبقى إلا ما ذهب إليه اللغويون والمفسرون الأوائل في فهم الآية باعتبار الأمة الوسط الجماعة السائرة على الطريقة المستقيمة في الاعتقادات والآراء والسلوك. وهذا المعنى للآية هو ما تؤكده الآثار الواردة عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعن عدد من الصحابة.

ويوضح هذا المعنى ما ورد في خيرية أمتنا في القرآن أيضاً: (كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله) (آل عمران/110). والخيرية هنا تعني ما يعنيه "الوسط" في وصف الأمة، ثم تحدّد علّة الخيرية بأنّ الأمة الوسط إنما جاءت خير منها من نشرها للخير، ومكافحتها للشر في هذا العالم. ولذلك أكملت الآية الكريمة التي نحن بصددها بقوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا) (البقرة/143). فالجماعة السليمة التوجه والتصرف، والتي تعمل لخيرها وخير الناس: (وما أرسلناك إلا رحمة

للعالمين)(الأنبياء/107) هي التي تستطيع أن تمارس الشهادة على النفس وعلى الناس، ويشهد لها وعليها رسولها صلوات الله وسلامه عليه، الذي تأسس على يديه هذا الخير كلّه، بإذن الله وإرادته.

2

وكما تتركز الاستقامة في حال الأمة بين الاعتقاد والسلوك، والمبادرة لنشر الخير والرحمة في العالم؛ فإنّ الأمر يدور بين الجماعة والفرد على الانتماء أو حتى إنكاره أو التنكر له، إمّا للإحساس بأنه لم يعد صحيحاً، أو للتوهم بأنّ الآخرين غادروا أو خانوا والذات الفردية هذه بقيت وحدها في الصراع إثباتاً أو إنكاراً. فالإحساس بالقلة وبأنه ضحية يفضي إلى التضحية بالانتماء أو الإضرار به، شأن ما يفعله المتعصبون منا ومن غيرنا اعتقادا منهم أنهم ينصرون أديانهم ومذاهبهم.

ولا شك أن توتر الهوية لدى الأفراد والجماعات الصغيرة، لا يجد حلا له إلا في الانتماء الكبير، وفي بحبوحة الأمة وتعدديتها ضمن الثوابت الكبرى. لكن من جهة أخرى فقد لا تتجه الأمور إلى التؤدة والتحسن، فيزداد التأزم، وتتخلخل الآليات التي تُستوعب تمت سقف الانتماء حساسيات الأفراد ووجوه قلقهم ومصالحهم وإدراكاتهم لتلك المصالح.

ويبدو لي أنّ هذه المساحات المقطوعة اليوم بين الهوية والانتماء أو بين الانتماء والأمة الوسط، تضعُ جماعات من شبابنا في مهبّ رياح الفوضى والافتقار للمقاييس. فالأمة الوسط صاحبة رسالة ومبادرة تجاه أمورها وأمور العالم، وعندما تفقد هذا التكليف أو تضعف ثقتها بنفسها ومهمتها، تتعدد الانتماءات بداخلها، ويتأزم أفرادٌ منها ويضيعون. ولهذا إذا كان الانتساب للأمة الوسط ضمانا للذات والدور، فإنّ الانتماء الاجتماعي والثقافي ضمان لسلامة الأفراد وحسن اتجاههم.

3

وفي سياق الهوية والانتماء تبدو اللغة، وتبدو الثقافة، الوعاءين الرئيسيين للرأسمال المعنوي للأفراد والجماعات، ضمن الهوية وضمن الانتماء على حدٍ سواء. وإذا كانت الثقافة نظاماً مادياً ومعنوياً لشعب أو شعوب أو هويات جماعية في مجال معين، فإنَّ اللغة –بحسب نعوم تشومسكي- هي دافعٌ فطريٌّ إنساني، لا تدخل في الثقافة أو في التعبير عنها إلا عندما ينمو الفرد، وينضم إلى نظام الرموز لشعب معين أو منطقة معينة.

وكما جرى التركيز في العقد الأخير على أزمة الهوية في مجال انتمائنا العربي والإسلامي، جرى التركيز أيضاً على ثقافتنا أو هويتنا الجماعية بوصفها مأزومة، وتشكل مشكلة في العالم، وهي تخوض صراعاً مع سائر الهويات والانتماءات الأخرى. والواقع أنه لا صراع ولا حوار بين الثقافات والحضارات، إذ إنها ليست عوامل فاعلة في صراعات الأفراد والجماعات. بل إنما تحدث تأثيراتها في المديات الطويلة، فيقال إنّ العلاقة بين هذا المجال الثقافي والحضاري أو ذاك كانت غنية أو فقيرة أو دافئة أو باردة.

أما الأسباب الحقيقية للصراعات أو حتى التوافقات فهي الميول الشخصية والمصالح لدى الأفراد، والمصالح الاقتصادية والسياسية لدى الدول. ولذلك لا معنى للتأكيد على أنّ الحضارة الإسلامية عنيفة، لأنّ بعض أفرادها ارتكبوا أحداث عنف. فالانتماء الجماعي ليس مسؤولاً عما يقوم به بعض أفراده، وإلاّ صارت كل الأمم وكل الشعوب مدانة وفي حالة حصار، لأنّ واحداً أو أكثر من المنتمين إليها ارتكب هذا العمل أو ذاك. فكما ليس هناك شعب عنيف وآخر مسالم، كذلك ليس هناك ثقافة عنيفة وأخرى مسالمة، وإنما يسأل الأفراد، وتُسأل الدول، وليس الثقافات أو اللغات عن هذا العمل أو ذاك، أو هذا التوجه أو ذاك.

ولا ينصبُّ الاهتمامُ في هذا العدد الخامس من مجلة التسامح على إثبات علائق اللغة بالثقافة؛ بل المراد دراسة هذا المثلث في علاقاته بعضه ببعض الهوية والانتماء –الثقافة- اللغة.

والذي يظهر أنّ قسماً من التأزم الظاهر في مجالنا الحضاري، إنما هو ناجمٌ عن الاختلال بين العناصر الثلاثة. فالهوية المنفصلة عن رحابة الانتماء تضعُ قيوداً على الثقافة في وعيها بالذات والدور والعالم. والثقافة بدورها يقلُّ تأثرها وتأثيرها في اللغة التي تتبلور في مساحاتها وسائط وأدوات ورسائل التواصل مع العالم والأمة الوسط أو الانقباض عنهما.

وهكذا، فإذا كان من مقاصد المحور والعدد دراسة العلائق، علائق التأزم، فإنّ من مقاصده أيضا استكشاف أبعاد دور الأمة الوسط، والانتماء الكبير للمحاورة والمشاركة البناءّة في هذا العالم.

****

*) رئيس التحرير.